

International Journal of Civilizations Studies & Tolerance Sciences

Vol 2 Issue 2 (2025)
Pages 58 - 67
Available at
www.emiratesscholar.com

باحثي الامارات
EMIRATES SCHOLAR
مركز بحوث ودراسات
RESEARCH & STUDIES CENTER

سمات التعايش الإنساني والتأثير الثقافي في الحضارة العربية الأندلسية

يحي ابن عبد الوهاب

جامعة عبد المالك السعدي

ARTICLE INFO

KEYWORDS

التراث الأندلسي، الحضارة الإنسانية، المشترك الإنساني، التعايش، الزواج المختلط.

HOW TO CITE

الوهاب, ي. ا. ع). 2025. (سمات التعايش الإنساني والتأثير الثقافي في الحضارة العربية الأندلسية.
International Journal of Civilizations Studies & Tolerance Sciences, 2(2), 58-67.
https://doi.org/10.54878/rsc2y243

ABSTRACT

تسعى هذه المقالة إلى دحض وجهات النظر القائلة بأن كل ما هو ديني يحتكر الحقيقة ويتسبب في خلق حالات من العنف وانتشار مظاهر الكراهية واستعباد الإنسان والحط من إنسانيته، وهو ما يؤدى إلى إيجاد شرخ كبير بين الشرق والغرب، وبين الحضارة الإسلامية عموما وباقي الحضارات، غير أن الغوص في التراث الإسلامي الأندلسي أكد عدم صواب هذا الاتجاه، من هنا جاء اختيارنا لموضوع سمات التعايش الإنساني والتأثير الثقافي في الحضارة العربية الأندلسية، كون هذا التراث يتضمن جوانب هامة تثبت وجود تعايش بين مختلف المكونات الدينية في كنف الحضارة الإسلامية الأندلسية واقتباس مظاهر تطورها المادي واللامادي وتكريم الإنسان وتعزيز العمل المشترك بغض النظر عن العقيدة الدينية.وتتوزع هذه المقالة لمبحثين، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة، خصصنا المبحث الأول للحديث المشترك الإنساني بالأندلس من خلال مظاهر الزواج المختلط، أما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه المشترك الإنساني بالأندلس على الصعيدين اللغوي والفني. وقد اعتمدنا في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي، بالإضافة إلى المنهج التاريخي الذي يستحضر السياقات التاريخية لإنتاج المعرفة وتطورها.

Double-blind peer review by independent reviewers.

Received: 25 Jul 2025, Accepted: 26 Nov 2025, Published: 23 Dec 2025
*Corresponding author: yahya.benabdelouahab@gmail.com
Copyright: © 2025 by the author. Licensee Emirates Scholar Center for Research & Studies, UAE.
Open access under the Creative Commons Attribution (CC BY) license
https://creativecommons.org/licenses/by/4.0

مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب، (ورقة مقدمة لمؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية جامعة دمشق، 1430هـ/2009م) لبلال صفي الدين، عقد فيه مقارنات بين التسامح والتعايش في كنف الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي (دار آراس للطباعة والنشر- أربيل، الطبعة الثانية 2011م) لعبد الحسين شعبان، تطرق فيه إلى أصالة التعايش والتسامح في الدين الإسلامي والتأصيل لهذه القيمة منذ عهد النبوة مع الإتيان بنماذج لذلك من التراث الاسلامي ومقارنة صور التعايش الواردة في الدين الإسلامي مع المبادئ والقوانين الدولية والأممية التي تحث على التحلي بهذه القيمة لبناء حضارة منفتحة على الآخرين، وتؤمن بما هو مشترك، في محاولة منه للرد على القائلين أن الإسلام مصدر أساسي للتطرف وقتل الآخرين، ولإثبات أن الإسلام كان سبّاقا في التأسيس لهذه القيم السامية وقيام حضارة تنمي المشتركات وتحتضن الآخر الديني وتساعده في نهضته وبناء مستقبله.

لذا فإن بحثنا ها هنا يروم إلى الإضاءة على مجتمع من صلب الحضارة الاسلامية، وقد اتخذنا لهذا الغرض التراث الأندلسي نموذجا حيا للتواصل الإنساني بين الحضارات، وتسليط الضوء على هو مشترك، يساهم في تنمية المجتمعات ويحقق حسن استخلاف الله في الأرض. كي نفند الأطروحات القائلة بأن مصدر العصبيات العرقية والصراعات المادية بين أفراد المجتمع الواحد، هي المجتمعات الدينية، خاصة المجتمع العربي الإسلامي.

ولمناقشة هذا كله وتحليله، ارتأينا الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، حيث يمكننا هذا المنهج من تحليل النصوص والأفكار ودراسة الإشكالات المختلفة ووصفها، كما اعتمدنا على المنهج التاريخي الذي يستحضر السياقات التاريخية لإنتاج المعرفة وتطورها، ذلك أن المعرفة تبنى عبر مراحل زمنية مختلفة، يؤثر السابق فيها اللاحق، وهو ما يسعفنا في استيعاب إشكالات الواقع الحالي عبر إرجاعها إلى جذورها وأسبابها التاريخية، وتوقع اتجاهاتها في استشراف المستقبل.

وبعد سلوك دروب البحث على هدى من طبيعة الموضوع، وما يتوخاه من نتائج وأهداف قسمنا ورقتنا البحثية لمحورين وهما:

المحور الأول، عنونته "بالمشترك الإنساني ودوره في التعايش الاجتماعي والديني بين الأندلسيين الزواج المختلط نموذجا "، خصصته لدراسة قضية الزواج المختلط في المجتمع الأندلسي.

المحور الثاني عنونته "بأثر المشترك الإنساني في إشاعة التعايش بالأندلس على الصعيد اللغوي والفني"، قمت عبره بإبراز القيم المشتركة وعلاقات التأثير والتأثر بين المكونات الدينية بالأندلس على الصعيد اللغوي والفني.

1 المشترك الإنساني ودوره في التعايش الاجتماعي والديني بين الأندلسيين "الزواج المختلط" نموذجا

مقدمة

منذ بدء تشكّل الحضارات، أصبحت الإنسانية أقرب ما يكون إلى حالة منتدى حضاري تشترك الأمم في عضويتها. ولعل نظرة فاحصة ستفضي بالباحثين إلى الإجماع على أهمية خلق فضاء اجتماعي يتميز بوجود مشترك إنساني له أبعاد عديدة، ما يعني أن الاستعارات الثقافية، والنظريات المتبادلة بين الأمم إنما هي ظاهرة سليمة، لا خطر فيها، ولا خوف منها.

إن الإيمان بالمشترك الإنساني يشكل طريقا أساسيا لنهضة ثقافية تخلصنا من رواسب الماضي المعارضة لأي حركة فكرية تصوّب ما هو سائدأساسيالاأ أت. فالمشترك الإنساني أصبح ضرورة حضارية، وتهميشه يعني بالضرورة شيوع ثقافة العنف والإقصاء. فالمشترك الإنساني هو باختصار تعزيز قيم التسامح والتعايش والتعاون، وتنمية ما هو مشترك، رغم اختلاف المرجعيات الدينية والفكرية والثقافية والحضارية، وهو أيضا يسهم في الكشف عن القضايا المتفق عليها، وحسن تدبير ما هو مختلف عليه، كي نتمكن من سد الطريق أمام مظاهر العنف والحروب والكراهيةو ال التي تصاعدت حدتها في الآونة الأخيرة، فألسنة الناس مؤخرا لا تنفك عن التطرق لمواضيع ينصب مجملها حول مشاكل متعلقة بالفلسفة الإنسانية، حيث تضعها محل تساؤل عميق، يفرض على الجميع الإجابة عليها، لذا فإن إشكالية بحثنا مرتبطة بالأساس بتصاعد حدة الانقسامات العرقية وتفاقم مظاهر العنصرية، والركون صوب تمجيد تراث العنف والإقصاء والتغاضي عن استثمار القواسم المشتركة في الدين والثقافة، والقيم الروحية والمادية.

من هنا تكمن أهمية موضوع، سمات التعايش الإنساني والتأثير الثقافي في الحضارة العربية الأندلسية، إذ يشكل لبنة من لبنات تأسيس حوار حضاري بناء، يؤمن بتلاقي الثقافات والتعايش بين مختلف المكونات الدينية، وهو أمر ملح اليوم قبل غد، فلا بد من مقولة "التعايش الإنساني" في النهاية من أن تهيمن على كل مجتمع بعينه، وعلى كل حضارة بمفردها.

فما مدى حضور المشترك الانساني في الحضارة العربية الأندلسية في ظل تواجد مجتمع يضم عقائد وطوائف دينية مختلفة ؟ وما تأثير ذلك على الصعيد الثقافي بالأندلس؟ وهل بالفعل أرست الحضارة الإسلامية الأندلسية قواعد متينة للتعايش بين مختلف المكونات الدينية تؤمن بتلاقح الأفكار والانفتاح على ثقافة الآخر وتطويرها؟

يقتضى الجواب عن هذه الأسئلة الإشكالية الرجوع إلى ما كتب في الموضوع من الدراسات السابقة، وهنا أذكر بعضا منها:

سماحة الإسلام (مجلة التسامح، العدد الأول، شتاء 1423هـ/2003م، سلطنة عمان) لمحمد عمارة، تناول فيه التسامح من خلال الأصول والقواعد الإسلامية ومن خلال تطبيقاتها العملية في الحضارة الإسلامية وفي التاريخ الإسلامي، ليبرهن على أن التعايش والاعتراف بالآخر الديني وبما هو مشترك قد بدأ في التاريخ الإنساني بظهور الحضارة الإسلامية، وأنها قد بلغت فيه مستوى متميزا لا نظير له خارجها.

يَعِيبونَها عِنْدِي بِشقرَةِ شَعْرِهَا فَقُلتُ لَهُم هَذَا الذِي زَانَهَا عِنْدِي
يَعِيبُونَ لَونَ النّورِ وَالتّبْرِ ضلَّةً لِرأْيٍ جَهُول فِي الغِوَايَةِ مُمْتَدُّ
وَهَلْ عَابَ لَوْنُ التّرْجِسِ الغض عائب وَلَونُ النّجومِ الزّاهِرَات على البُعْدِ .

في ذات السياق تذكر لنا كتب التراجم الأندلسية عن زواج عددٍ كبيرٍ من العلماء والقضاة بنساء إسبانيات، وعلى سبيل المثال نجد الوزير الشاعر تمام بن علقمة الذي تزوج من ابنة رومانوس قومس جنوب إسبانيا أيام القوط، وزواج المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1406م) حينما زار الأندلس سنة 764هـ/1363م بفتاة إسبانية تدعى هند.

ترتب عن الزواج المختلط بالأندلس عدة آثار إيجابية، منها ظهور طبقة اجتماعية جديدة تسمى "بالمولدين"، وهذا يؤكد سرعة انتشار الإسلام في الأندلس، ولعل انتشار الاسلام في الأندلس بهذه الصورة بوصفه نتيجة مباشرة من نتائج الزواج المختلط بين المسلمين الفاتحين وأبناء البلاد المفتوحة، يؤكد أن الإسلام لم ينتشر في إسبانيا بحد السيف، فانتشار الإسلام كان سببه الأساسي الانفتاح على سكان المنطقة الأصليين وعدم إقصائهم أو محاربة ثقافتهم وعاداتهم، وهذا السلوك أفضى إلى إعجابهم بثقافة الفاتحين وعقيدتهم الإسلامية الداعية إلى التعايش مع الآخر الديني.

وقد سطع نجم العديد من الأسر المولدة في كافة مناحي الحياة، العلمية والسياسية، حيث أسهموا في إرساء دعائم الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت معبرا من معابر تلك الحضارة إلى الغرب الأوروبي، ومن أمثلة الأسر المولدة التي برزت في المجال الحضاري الاندلسي، "بنو القبطرنة" وهم ثلاثة أخوة، من أصول مولدة، عملو بالأدب، فاستوزرهم "بنو الأفطس" أصحاب بطليوس، والإسم الذي تسموا به هؤلاء الأخوة هو "القبطرنة".

كما برز من المولدين شخصيات من مشاهير علماء الأندلس، منهم على سبيل المثال أبو عامر بن خطاب رئيس مرسية في عصر دويلات الطوائف.

ومن أشهر علماء الأندلس الذين ينتمون إلى أصول مولدة أبو القاسم خلف ابن موسى المعروف بابن بشكوال واسم بسكوال محرف من الاسم الإسباني Pascual، ومن أبرز مؤلفات ابن بشكوال كتابه الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم.

كذلك ظهر من المولدين العالم "عريب بن سعيد" صاحب كتاب "تقويم قرطبة" يبين فيه طرق الزراعة وتوقيتها شهريا ومواعيد الغرس وتكاثر الحيوانات، إلى جانب ذكر أهم علماء النبات البارزين في الأندلس، وقد عمل عريب بن سعد أيضا طبيبا للحكم المستنصر لفترة طويلة، كما كان مؤرخا شهيرا إلى جانب عمله كطبيب وعالم نبات

لا يستقيم تتبع ظاهرة الزواج المختلط بالأندلس سواء على المستويين الرسمي والشعبي دون معرفة موقف الفقهاء الأندلسيين من هذه الظاهرة، فالوقوف على أرائهم في هذه القضية تعطي لنا صورةً واضحة المعالم حول الحدود والهوامش التي لم يجد الفاتحون كبير حرج في الزواج من نساء مسيحيات، فقد أقبلوا على هذا العمل منذ أن وطأت أقدامهم بلاد الأندلس، فعبد العزيز بن موسى بن نصير، تزوج من إيخيلونا Egilona، أرملة لذريق التي عرفت في المصادر العربية "بأم عاصم"، وقد حظيت عند عبد العزيز بن موسى بن نصير بمكانةٍ مرموقة وصلت إلى حد أن سكن بها في إشبيلية في كنيسة ربينة التي بنى على بابها مسجداً عرف بهذا الاسم أيضاً.

وحذا حذوه العديد من رجال العرب مثل عبد الجبار بن نذير الذي تزوج من إحدى بنات تدمير، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من "سارة" القوطية.

من هذا كله يتضح لنا أن حكام الأندلس الجدد كانوا منفتحين منذ الشروع في تأسيس دولتهم على الآخر الديني، فكان هدفهم في المقام الأول، قيام حضارة تؤمن بقيم التعايش والانفتاح على الآخر الديني وثقافته، وتشييد دولة يسودها الأمن والاستقرار.

إن الزوج من إسبانيات أصبح تقليدا شائعا عند أهل الأندلس بمختلف طبقاتهم الإجتماعية، ومن أمثلة ذلك، زواج أمراء بني أمية في الأندلس من نساء "البشكنس" و"الجلالقة" ، إلى حد أن كثيرا من الباحثين المعاصرين يعتبرون البيت الأموي بيتا "مولدا"، وعلى سبيل المثال نذكر أم الأمير هشام الرضا بن الأمير عبد الرحمن الداخل كانت أمه إسبانية اسمها "حورا"، وأم الحكم الربضي بن الأمير هشام الرضا، كانت مسيحية اسمها "زخرف"، كما كان لعبد الرحمن الأوسط العديد من الإسبانيات كن أمهات لأولاده أشهرهن "طروب" و"مجد". كما كانت أم الخليفة عبد الرحمن الناصر تعتنق الدين المسيحي و اسمها "مزينة".

كذلك كانت أم الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر، أم ولد إسبانية الأصل اسمها "مرجان"، أما هشام المؤيد بالله بن الحكم فكانت أمه السيدة "صبح"، ومن بين أمهات خلفاء بني أمية في الأندلس، إسبانيات الأصل، ظبية أم سليمان المستعين، و"غاية" أو "غادة" أم المستظهر بالله، و"حوراء" أم المستكفي بالله"، و"عاتب" أم المعتد بالله.

أما المنصور بن أبي عامر فكانت له امرأة مسيحية اسمها "عبدة" أسلمت فيما بعد، وأنجب منها ولده عبد الرحمن الملقب "بشنجول".

ظاهرة الزواج المختلط لم تكن حكرا على العرب فقط، فقد تابعهم في ذلك البربر. ومن الأمثلة الدالة على هذا القول، زواج كبار القادة البربر من سيدات وأميرات إسبانيا المسيحية، ونستحضر في هذا المقام زواج "مونوسة" القائد البربري الشهير وحاكم إقليم شرطانية في عصر الولاة في طليعة القرن الثاني للهجرة من أخت بلاي (Pelayo) القوطي "مرة"، ومن "مينين" بنت إيوديس ((Eudes دوق أقطانية ((Aqultania مرة أخرى.

يخبرنا ابن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1064م) أن زواج الخلفاء من النصرانيات كان يستهويهم منذ القدم، والبيت الشعري الآتي يبين مدى حب الخلفاء الزواج من نصرانيات شقراوات:

يظهر بالملموس عمق العلاقة التي جمعت كل المكونات الدينية داخل الحضارة الإسلامية الأندلسية، ويفند بالمقابل نظريات التقاتل والإقصاء التي تلصق صوب أي مجتمع يتسم بالتنوع الديني.

كما انتشرت ظاهرة ازدواجية اللغة بين الأندلسيين خاصة المولدين، ونقصد بذلك اللغة العربية والرومانسية، وهي لهجة عامية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الإسبانية ويسميها العرب الأعجمية أو اللاتينية.

بالمقابل، لم يجد المسلمون حرجاً في التكلم باللغة اللاتينية لمخاطبة النصارى، والأمر ذاته ينطبق على المكون اليهودي بالأندلس حيث استعملوا اللغة اللاتينية في محادثاتهم إلى جانب اللغة العربية حيث اعتبرت لغة يهود الأندلس، فبها يتكلمون، ويفكرون ويكتبون، واستخدموا (العربية/العامية) نفسها التي يستخدمها مسلمو الأندلس، حتى داخل بيوتهم. ومن القرائن التي تعكس هذا المعطى رواية الخشني في معرض حديثه عن قاضي قرطبة سليمان بن أسود الغافقي التي يقول فيها: (فتقدمت امرأة إلى القاضي فقالت له بالعجمية: يا قاضي، أنظر لشقيتك هذه، فقال لها بالعجمية: لست أنت شقيتي، إنما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار).

وفي هذا الصدد نجد ليفي بروفنسال يقول: (سلك التلموديون طرقاً مشابهة لتلك التي سار فيها فقهاء البلدان المسلمين، ومنهم الأطباء، والمترجمين بخاصة، وأهلهم لهذا الدور ما عرفوا به من إتقانهم اللغات العربية والقشتالية والعبرية في الوقت نفسه، وأحياناً كانوا يعرفون إلى جانبها اللغتين اللاتينية واليونانية).

كانت اللغة العبرية في جميع البلدان التي تفرق فيها اليهود تعاني من الترك والإهمال غير أن هذا الوضع تغير بعدما اختلط يهود الأندلس بالمسلمين وتعلموا منهم اللغة العربية وقواعدها وأدبها وقوموا بها ألسنتهم وأذواقهم ورأوا كيف يخدمون المسلمون لغتهم من منطلق ديني باعتبارها لغة القران الكريم والحديث الشريف فقرروا خدمة لغة كتبهم المقدسة بوضع قواعد لها على طريقة المسلمين في خدمة لغتهم العربية.

ومن القرائن الدالة على مدى تأثر يهود الأندلس باللغة العربية وإعجابهم بها، مؤلفات مناحيم بن ساروق الطرطوشي* حيث ألف المعجم العبري الذي يسمى "محبريت" أي التفسيرات، وقد عُدَّ هذا المعجم أول عمل لغوي في العبرية يغطي جميع مفردات الكتاب المقدس وكانت طريقته في التأليف على طريقة النحاة العرب.

تميزت أعمال ابن جناح في النحو العبري، وكانت غزيرة تحمل كثيراً من الإبداع، وقد أعانه على ذلك تضلعه من اللغة العربية وإتقانه لقواعدها، ودراسته لأمهات كتب النحو العربي ككتاب سبويه.

وتظهر كتابات ابن جناح الأثر العربي الكبير في فكره وأسلوبه، ومما يدل على ذلك أنه بدأ كتابه اللمع على طريقة الكتاب المسلمين حيث يقول فيه: (الحمد لله الذي خلف الإنسان فعلمه النطق وهداه إلى الإقرار بربوبيته، والإعلان

اختطها فقهاء الأندلس في مسالة الزواج بالذميات، وفي هذا الشأن أباح ابن حزم بجواز الزواج من كتابيات، وفي السياق ذاته القرطبي أفتى بجواز نكاح الذمية من المعاهدين ومن غيرهم، وقد أكدت فتوى فقهية على أن المرأة المسيحية لا يعقد نكاحها أمير أو ولي مسلم "فأوليائها أحق بالعقد إلا أن يأبوا فيعقد نكاحها الأمير".

كشفت لنا ظاهرة الزواج المختلط اللثام على ابتعاد المجتمع الأندلسي عن مظاهر الإقصاء والغلو والركون إلى مجتمع ذات لون ديني واحد، وكما رأينا فإن أسباب خلق هذا الواقع المتميز والمحتضن لنساء كتابيات دينية بامتياز، حيث شجع الفقهاء المسلمون عبر فتاويهم معاشرة النساء غير المسلمات بالإحسان والمعروف، وهذا ينفي، تلك الدعوات القائلة بتناحر الديانات، وتسببها للحروب داخل المجتمعات، وعدم صلاحية قيمها في عصرنا الحاضر.

2 . المشترك الإنساني وإشاعة التعايش بالأندلس على الصعيد اللغوي والفني

1.2 على الصعيد اللغوي

يعكس تعلم اللغتين العربية واللاتينية بالأندلس مظهراً آخر من مظاهر التعايش المشترك، وحسبنا أن اللغة العربية انتشرت بين أوساط المستعربين، ولم يكن من النادر في شيء أيضاً أن تجد بين رجال الدين المسيحيين الإسبان من أجاد اللغة العربية وتضلع فيها، وحذق آدابها، مما يتيح لنا أن نفترض وجود صلات وثيقة، ومتصلة، بين مختلف عناصر السكان، وظل استعمال اللغة العربية قائماً لمدة طويلة من الزمن حتى انتهاء الحكم الإسلامي بالأندلس. وتدل شكوى القس ألفارو القرطبي (ت: 240هـ/854م) عن انتشار اللغة العربية في أوساط المسيحيين بالأندلس، عن مدى تغلغل اللغة العربية بين بني جلدته وغيرهم في فترات مبكرة بالأندلس، وهو ما عبر عنه ألفارو القرطبي بقوله: (إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً. وأين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين، وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلةً في جمع كتبها، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقية جديرة بالإعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية، أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم لقد نسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجد منهم عدداً عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا).

يعكس كلام ألفارو القرطبي مدى اشعاع الحضارة الأندلسية ورقيها على المستوى الثقافي، فانجذاب المسيحيين صوب ثقافة الأندلسيين وتأثرهم بها دون تحفظ،

فترة من الفترات احتضاناً رسمياً من هذه الممالك، فألفونسو أمر بقيام هيئة للترجمة تحت رعايته تنقل إلى اللغة القشتالية، ترجمةً أو اقتباساً، كل التركة الثقافية التي خلفها العرب في البلاد، وعمل في هذا المشروع تراجمة من المسلمين والمسيحيين، ومن اليهود بخاصة، فريقاً متكاملاً، ويعملون متعاونين.

في ذات الفترة، أنشأ الأمير ألفونسو أيضا معهداً للدراسات اللاتينية والعربية في إشبيلية عام 1254م، ونال حماية البابا إسكندر الرابع ببراءة موقعة منه عام 1260م.

أدت مبادرة ألفونسو العالم إلى بعث الحمية والنشاط في جهد سبق أن وجد طريقه إلى الحياة قبل ذلك بزمن طويل، ويدرك مداه من يدرس تأثير الثقافة العربية الأندلسية على مؤلفات أوروبا الغربية التي تلت تلك الفترة، وبخاصة ما اتصل منها بالكتب الفلسفية، وسوف يكون إسهاباً مطنباً أن نتتبع مظاهر هذا التأثير الخاص، والذي اشتهر بما سمي "الصوفية المسيحية"، وأبرز أعلامها "رايموند لل" وتتلمذ مباشرة، على ما يبدو، على الطريقة الصوفية لمحي الدين بن عربي.

وعلى العموم، فإن إقبال المستعربين الإسبان على استخدام اللغة العربية، وتتلمذ كثير من اليهود على أيدي الأساتذة العرب، أدى إلى تأسيس مدرسة كبيرة من غير المسلمين استطاع أعضاؤها القيام بدور السفراء بين الحضارة الإسلامية من ناحية، وأهالي غرب أوروبا المتلهفين على الاستفادة من هذه الحضارة الإسلامية من ناحية أخرى. وشارك اليهود مشاركةً فعالة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وذلك مما ترجموه من كتب عربية كثيرة هذا مع ملاحظة أن نشاط يهود إسبانيا في ذلك العصر كان جزءاً لا يتجزأ من نشاط المسلمين الحضاري.

عندما سقطت طليطلة في أيدي المسيحيين سنة 1085م تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوروبا على إسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطا منقطع النظير، واستمرت حتى القرن الخامس عشر. وهكذا ترجم إلى اللاتينية كثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، كما ترجم عن العربية كثير من مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وبقراط، وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وغيرهم. وقد وجد من حكام إسبانيا المسيحيين من قدروا الثقافة العربية الإسلامية، ومن هؤلاء ألفونسو الخامس ملك قشتالة وليون الملقب بالحكيم.

لقد ترك الوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية طابعه على اللغة بعمق، وخصوصا من حيث المفردات، بحيث إنه لا يزال حتى اليوم أوضح أثر تركته هذه القرون السبعة، وهذا الأثر يتناول مختلف نواحي الحياة، من الزراعة إلى الفنون والحرف، ومن التجارة إلى الإدارة، ومن الحرب إلى العلم، ففي مجالات الدين والإدارة والحرف نجد كلمات مثل: المسجد Mesavita، أمير الماءAlmirante ، القاضي Alcade، الوزير Alquacil، المشرف Almojarife، المحتسب Almotaciem، صاحب المدينة Falmedina، الفقيه Alfaqui، الحكيم Alfaquin، الحاجب Alhagib، صاحب السوق Fabasouqae altat،

بوحدانيته، فأوضح له سبيل الهدى، واستنقطه من طريق الردى، وخص اللغة العبرية بالفضل والميزة من بين جميع اللغات، فأنزل بها كتبه المقدسة، وأبان بها شرائعه المطهرة، أحمده حمداً يبلغ رضاه، ويوجب الألفة لديه، والقربة من رحمته). ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه: (وما لم أجد عليه شاهداً مما ذكرته، ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي، لم أتحرج من الاستشهاد بواضحه، ولم أتحرج من الاستدلال بظاهره، كما يتحرج من ضعف علمه، وقل تمييزه من أهل زماننا، لاسيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين مع قلة التحصيل لحقائق الأمور).

ومثلما اتخذ النحاة المسلمون القرآن الكريم والحديث الشريف أساساً يعتمدون عليه في دراسة النحو العربي، ويستشهدون بهما للتدليل على قواعد لغتهم، ويستخدمون مهاراتهم في اللغة لخدمة تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف والتعرف على أسرارهما، فعل ذلك ابن جناح، حيث يقول: (وأنا مزمع أن أستشهد على شرح بعض الأصول بما أمكنني من الموجود في التوراة، وما لم أجد عليه شاهداً من التوراة استشهدت به عليه بما حضرني من التلمود)، ويقول أيضا: (ولما كانت منزلة علم اللسان أنه العلم الجليل النظر، العظيم القدر المؤدي إلى علم كلام الله، المعين على العمل بأمره ونهيه، المزلف إلى ثوابه، المبعد عن عقابه، اعتقدنا أن نؤلف في ذلك كتاباً نجمع فيه أبوابا تشتمل على أكثر علم اللغة ونحيط بجل استعمالاتها ومجازاتها).

وعلى نفس المنوال صار ابن جبيرول حيث نظم لأول مرة في اللغة العبرية قصيدة تتناول النحو العبري على غرار ألفية بن مالك وتتكون هذه القصيدة من 4000 بيت التزم فيها الشاعر توالي الحروف الأبجدية العبرية.

ولكثرة إعجاب يهود الأندلس باللغة العربية ذهب بعضهم الى كتابة الأشعار باللغة العربية حيث نجد يوسف بن سهل له عدة قصائد بالعربية.

وفي هذا السياق، نذكر رأي اليهودي دوناش بن لبرط، في حق علوم العربية وآدابها وإعجابه بها ونصحه لطائفته بتعلمها:

فلتكن الكتب المقدسة جنتك ولتكن العربية فردوسك.

تجرنا المعطيات السالفة الذكر إلى استنتاج نقطة هامة جدا، تتمثل في انفتاح المكون العبري الموسوم بأنه مكون منغلق على ذاته على الحضارة الإسلامية الأندلسية وانبهاره بالمستوى الأدبي والثقافي الذي وصل إليه مثقفو الأندلس المسلمين، وهذا يجرنا أيضا إلى استنتاج آخر مفاده، أن تاريخ المكون اليهودي المليء بممارسة الاضطهاد والعنف ضدهم في الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، لا ينطبق على الحضارة الإسلامية حيث كانت المعاملة معهم مختلفة تماما .

إن غنى المحتوى الثقافي والعلمي للغة العربية جعل من هذه اللغة لغة حيةً على جميع الأصعدة، فبالرغم من تساقط مدن الأندلس في يد ممالك الشمال المسيحية، فإن العربية ظلت منتشرة في هذه الممالك لمدة طويلة، بل لاقت في

لغتهم بما يتناسب مع السكان الأصليين، وهذا ما سمح للغة العربية بأن تكون لغةً وطنيةً أندلسيةً بجانب لغاتٍ فرعيةٍ أخرى، ما أسهم في استمرار الشعلة الحضارية الأندلسية مضيئة بأوروبا رغم سقوط الإمبراطورية الأندلسية سنة 1492م .

2.2 الموسيقى والفنون

حظيت الحركة الفنية بالأندلس باهتمام خاص، فتألقت الفنون وازدهرت العلوم والآداب وارتفعت الأذواق لدى الخاصة والعامة، ولقد أعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس منذ طليعة القرن الثالث الهجري أكثر وسائل اللهو شيوعاً وتفشياً في المجتمع الأندلسي، كما أن الرغبة في التحصيل العلمي والاطلاع شملت جميع طبقات المجتمع الأندلسي في مختلف أصقاع الأندلس وعمت الشعب بأكمله. وفي هذا الصدد نستهل هذا المطلب بذكر أدوار زرياب الإبداعية في مجال الفن والموسيقى وارتباطاتهما الحضارية، فزرياب الذي عاش في قرطبة من عام 822م حتى وفاته عام 857م، نهض بالثقافة الشعرية والغناء وزاد الوتر الخامس للعود ليكون بمثابة الروح من الجسد وصنع مضرب العود من قوادم النسر بدلاً من صنعها من الخشب. وعلاقة بأدوار زرياب الإبداعية، نذكر أنه قد نقل إلى الأندلسيين طريقة تسريح الشعر وقصه بدلاً من تركه ضفائر، وترك تأثيراً عند الأندلسيات فقلّدن زوجته في اللباس وفي أسلوب الطهي. كما جدَّدَ زرياب في الأطعمة المعروفة وانتشرت وجبات عديدة ابتكرها، وأدخل إلى الأندلس خضروات لم تكن معروفة من قبل، كما أنه عود الأندلسيين على تغيير الملابس طبقاً للفصول فمن أول حزيران - يونيو أصبح الناس يرتدون الملابس البيضاء حتى أول أيلول - شتنبر، وفي الشتاء عليهم أن يلبسوا الفراء والملابس الثقيلة، كما علمهم أن يرتدوا في الربيع ملابس حريرية خفيفة زاهية الألوان، كما افتتح زرياب في الأندلس أول معهد لتدريس التجميل، وعلم الناس كيف يفرقون الشعر في منتصف الرأس ولا يتركونه يغطي وجوههم، كما علمهم أنه لابد أن تبدو حواجبهم وآذانهم، أيضا علمهم تبييض الثياب بالملح، كما عرف عن زرياب أنه كان يفضل استخدام الأواني الزجاجية على نظائرها الفضية أو الذهبية. ولا شك أن وفود المغني زرياب إلى الأندلس في إمارة عبد الرحمن الأوسط شكل ثورة فنية واجتماعية كبرى في الأندلس تركت بصماتها على فنون الغناء والطرب في الأندلسي فيما تبع ذلك من عهود. ومن المؤكد أن الاستقبال الحافل الذي قوبل به زرياب، وإنزاله منزلةً حسنةً في الأندلس، وضمان راتب شهري له يقدر بمائتي دينار، فضلاً عن تخصيص عشرين ديناراً شهرياً لكل فرد من أبنائه، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف دينار كان يتسلمها كل عام بمناسبة الأعياد دون احتساب ثلاثمائة مد من الشعير والقمح كانت تمنح لها، وتخصيص دور بالحاضرة بمستغلاتها وبساتينها وضياعها مما يقدر بأربعين ألف دينار. يظهر كيفية تعاطي الأندلسيين على المستوى الرسمي والشعبي بالمجال الفني والإبداعي وشغفهم بكل ما هو جميل، وما يصب في صالح إشاعة أجواء التسامح والتعايش بين المكونات الأندلسية.

لم يكن الاهتمام بالمجال الموسيقي حكراً على زرياب، فمن الأندلسيين الذين ألفوا في الموسيقى العالم اللغوي والنحوي أبو عثمان سعيد بن فتحون بن مكرم القوادة Alcahuete الخ. وفي المفردات التجارية هنالك: الديوان Aduana، المخزن Almacen، تعرفة Trifa، السوق Foco، المناداة Alnomeda، التجارة Atijara . وفي مجال الأوزان والمقاييس والعملات نجد: الربعة Arroba، القفيز Cahiz، الفنيقة "الكيس الواسع" Fanega، المد Alnud، الدرهم Adarme، الرطل Arrelde، السكة Ceca، مثقال Melacal، وغيرها. كذلك هنالك العديد من الكلمات التي تدل على أسماء المعادن والمنتجات ذات الأصل العربي، مثل: الزئبق Azoque، البياض Albaualde، العاج Marfil. الكافور Alcanfor، الكحول Alcohol، النحاس Annofaz، المسك Almizole. وهناك أسماء الألبسة والمواد ذات المنشأ الشرقي مثل: الجبة Aljuba، البرنس Albornoz، السراويل Zaraquelles، القناع Alquinal، والكلمة التي تدل على الخياط نفسه Alfayate.

لكن عنصر المفردات الدالة على الزراعة والسقاية غني أكثر من غيره: الساقية Acequia ، الناعورة Noria، السد Azud، القادوس Arcadus، الجب Aljibe، البركة Alberca، السانية "طاحونة على الماء" Acena، طاحونة Tahona، المعصرة Almazara. وتعتبر شهادة حية على المستوى الفني الرفيع الذي وصل إليه العرب وعلى الأهمية الكبيرة للزراعة في الاقتصاد والحياة الاجتماعية لتلك البلاد. كذلك يوجد في الإسبانية الكثير من أسماء النباتات والثمار والخضراوات التي تعود إلى أصل عربي ، مثل: الخرشوف Alcahofa، الرز Azzoz، نارنج Naranja، ليمون Limon، الزعفران Azafran، السكر Azucar، الزيت Aciete، باذنجان Berenjena، البرقوق Albericoque، الريحان Arayan، السوسنة Azucona، الخزامى Alhuzema، نجد الكلمات المتعلقة بالأمور البيئية وفن العمارة كثيرة جدا: الضيعة Aleda، الربض Arreobal، البري "حي من البلد" Barrio، البناء Albanil، الحوزAlhoz، السطيحة Azotea، القبة "غرفة النوم" Alcoba، الأسطوان "مدخل البيت" Faguam، الزليج Azuleja، الطوبة Adobe، وكثير من الكلمات المشابهة ، وكثير من الكلمات المشابهة، كذلك نجد الكلمات الدالة على الألعاب: الشطرنج Aljedrez، والأدوات الموسيقية كالعود Laud، الطبل Atabol، الدف Adufe، والتي تعطينا لمحة عن حياة البلاد المرحة.

إن استيعاب الآخر الديني للغة العربية وطريقة تعامله مع لغة حديثة العهد عليه، وكيفية اندماج اللغة العربية في الوسط المجتمعي، يحيلنا إلى سلوك المسلمين مع أتباع الديانات السماوية على الأراضي الأندلسية، ويحيلنا أيضا إلى تقبل المسيحيين واليهود على السواء لهذه اللغة، ومدى شغفهم وإعجابهم بسلوك المسلمين، ويعبر عن استعدادهم كذلك لتقبل أي ثقافة تعمل على تنمية المشتركات وإشاعة التعايش داخل المجتمعات، وبناء على هذه المعطيات يمكن استخلاص الكم الحضاري للمجتمع الأندلسي، سواء أكان من الناحية اللغوية الأدبية أو من الناحية الفكرية الدينية، فالمجتمع الأندلسي في جانب كبير منه كان خاليا من التطرف والتيارات الدينية المنغلقة على ذاتها، وهذا المعطى يكشف لنا عن مدى مرونة اللغة العربية والناطقين بها من حيث قبولهم إدخال بعض التعديلات على

أخذت تنتقل الفنون الأندلسية من إسبانيا إلى الشعوب الأوروبية الأخرى ذات الثقافة اللاتينية البحتة. فنجدها تتسرب إلى كطالونيا، ثم إلى دول نبره وأرجون وقشتالة في الشمال حتى استيلاء الإسبان على طليطلة سنة 1085م، ثم اتسع فيما بعد الاستيلاء على المدن الأندلسية الكبيرة مثل قرطبة وإشبيلية فعاشوا مع حضارة العرب قرونا، بحيث أصبحت جزءاً لا يتجزأ من بناء حضارتهم، أو قل إنها مكنتهم من بناء حضارتهم الحديثة، إذ لم يكن لهم قبلها حضارة حقيقية. وقد ظلت الحضارة المادية الأندلسية تحيا بقوة في إسبانيا عن طريق من بقي فيها من أهلها سواء المدجنون أو المورسكيون قبل إخراجهم من إسبانيا. ولا يزال الغناء الإسباني إلى اليوم يحمل أنماطاً مختلفة من التطريب المعروف في الغناء العربي، وإلى جانب ذلك فالعديد من آلات الموسيقى العربية كالعود والقيثارة والجيتار والنقارة، والدف والصنوج والنفير، والطبل والقرن والشقير، آلات موسيقية عربية انتقلت إلى أوروبا وحافظت على أسمائها بلغتها الأم. كما تحدثنا المصادر أيضا أن أوروبا تعرفت على الآلات الوترية ذات القوس بحدود القرن الحادي عشر الميلادي حينما انتقل إليها الرباب العربي، عن طريق الأندلس، ولذلك فإن أول بلاد أوروبا تأثراً بالآلات الوترية ذات القوس الواحد، هي البلاد المجاورة للأندلس مثل: فرنسا وإيطاليا، حيث أن الفرنسيين صنعوا آلة تماثل الرباب العربية تسمى RUBELLA ومن آلات النفخ الناي الصغير والناي الخشبي ذو المبسم والنفير TROMPE والسمبول TYMBOL والبوق. ومن الطبول: الطبل والطبلة والصنوج والنقارة. كما نقل الأوروبيون عن العرب الموسيقى المتعددة الأصوات "الهارموني" بالعزف على أكثر من وتر، كما استفاد الأوروبيون من ابن سينا والفارابي اللذان وصل انتاجهما إلى الأندلس، السلم الموسيقي الذي نقلوه عن الكندي، أما الإيطاليين فقد صنعوا آلة سموها Rubeca وقد انتشرت تلك الآلات في القرن الرابع عشر وعمّت أوروبا، ومن هنا بدأ يطرأ عليها التغير تدريجياً حتى أواخر القرن الخامس عشر حيث أصبحت تعرف تلك الآلات باسم Viola أي الوتر.

أيضاً من افرازات الزخم الفني الأندلسي وتأثيراته على الساحة الأوروبية طريقة العزف المعروفة باسم ZAMBRA وهي تعني بالعربية "زمرة" وكذلك كلمة ZAETA وهي تعني الصبيت، وتطلق على المغني بمفرده في أعياد الميلاد المسيحية، وأيضاً سلوك السامعين عند طربهم من سماع الغناء والموسيقى، حيث يقاطعون العازف أو المطرب، معلنين إعجابهم، بكلمة إسبانية شهيرة مازالت تستعمل إلى اليوم وهي OLE OLE وهي تعني "الله الله"، وأيضاً كلمة يا ليل LELI LELI وغيرها من الكلمات التي تدل على تعايش الجميع واندماجهم في سماع موسيقى أندلسية واحدة.

وإذا عدنا قليلاً إلى فترة إسبانيا المسيحية في القرون الوسطى، نجدها تميط لنا اللثام عن مقطوعات أغاني دينية كمقطوعات ألفونسو العالم، مشتقة من الغناء العربي الأندلسي، كما نرى أيضاً صوراً تفسيرية تمثل العازفين على مختلف الآلات الموسيقية في أحد المخطوطات الرائعة التي تتضمن تلك المقطوعات الدينية الشعرية وفيها صورة تمثل شاعراً جوالا مسيحياً وآخر مسلماً يعزفان على العود ويغنيان السرقسطي. ويجب أن لا يفوتنا في هذا المقام، الإشارة إلى أن الموسيقى والغناء من بين الفنون التي أخذها اليهود عن مسلمي الأندلس، حيث نقف على ترجمات عديدة لموسيقيين اليهود، كإسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي، حيث وصف بأحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان، وملازمة ابن باجة، الذي أخذ عنه الغناء بلسانه ويده، كما يشير ابن صاعد الأندلسي أن أبا الفضل حسداي بن يوسف، قد اهتم بصنعة الموسيقى، وحاول عملها.

ومن مظاهر التعايش في المجال الموسيقي والفني، كان فيما نقله الصقالبة من الموسيقى الخاصة بالنصارى والرهبان المسيحيين، فأخذوا عنهم تراتيلهم الموسيقية التي كانوا يؤدونها في كنائسهم، هذا ما نستنتجه من كلام الطرطوشي الذي يروي لنا الألحان والرقصات الخاصة بالصقالبة: (ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً فقالوا: اللحن الصقلبي، فإذا قرأوا قوله تعالى: وإذا قيل إن وعد الله حق ، يرقصون من هذه الآية الكريمة كرقص الصقالبة بأرجلها، وفيها الخلاخيل، ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل، ويرجعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي، ورقص الأرجل، وكل ذلك على نغمات متوازنة، و نظروا إلى كل موضع في القرآن الكريم، يأتي فيه ذكر النبي عيسى بن مريم عليهما السلام، كقوله تعالى: إنما المسيح عيسى بن مريم، وقوله تعالى : وإذا قال الله يا عيسى بن مريم، فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات الرهبان والأساقفة، في الكنائس).

ورغم تحريم الشريعة الإسلامية لطريقة الصقالبة في قراءة القرآن الكريم، عبر اعتمادهم الألحان والموسيقى، تأثراً بالتراتيل والألحان التي كان وما زال يترنم بها القساوسة المسيحيين في كنائسهم، فإن هذا المعطى يضيء على زاويةٍ هامة تظهر حجم الاختلاط والتعايش، بين مختلف مكونات الشعب الأندلسي والذي لم يستطع أن يفرق بين ما يجوز وما لا يجوز.

كان من نتائج اهتمام الأندلسيين بالميدان الفني والموسيقي تقاطر البعثات الطلابية عليهم، ففي عام 213هـ وصل تعداد بعثة طلابية سبعمائة طالب وطالبة أتوا من مختلف مقاطعات الشمال الإيبيري وألمانيا وفرنسا من أجل تلقي فنون وحضارة الأندلس. وتعتبر الموسيقى في صدارة العلوم والفنون التي أقبل عليها الطلبة الأوروبيون المبعوثون إلى المراكز الحضارية الإسلامية، حيث ترجموا ونقلوا الكثير من الكتب العربية في مجال الموسيقى، كمؤلفات الكندي، وثابت بن قرة، وزكريا الرازي، والفارابي، وإخوان الصفا، وابن سينا، وابن باجة، وغيرهم. هذا التقدم الحضاري والفني، الذي ظل مزدهرا في الأندلس طوال سبعة قرون منذ عهد عبد الرحمن الأوسط، كان ينعم بها ويعيشها كل سكان الأندلس من العرب والبربر والمولدين والمستعربين المسيحيين ، بالمقابل نجد في الجانب الآخر ونقصد بذلك إسبانيا المسيحية لا تعرف سوى ترانيم الكنيسة والتي تعرفت على الموسيقى وألحانها من الغناء الأندلسي، والذي يعد عنصراً أساسياً في موسيقى إسبانيا الحديثة، بل لا نبالغ إذا قلنا أن نظرية الموسيقى الإسبانية اشتقت اشتقاقا من نظرية الموسيقى الأندلسية، بل إن نظرية الموسيقى الأوروبية جميعها اشتقت منها.وهذا التفوق العظيم للحضارة العربية بدأت إرهاصاته تتضح في شمال إسبانيا منذ القرن الثامن، ثم تضاعفت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حين

علاقات أخرى أساسها الرحلات وتبادل السفارات والرسائل والهدايا بين الأمم الإسلام والمسيحية، ومن ذلك سفارة.

مما تقدم ذكره، يمكن القول، أن التسامح الذي تبناه الأندلسيون واتخذوه منهجاً في سلوكهم مع الآخر الديني، أدى إلى خلق أشكالٍ عديدةٍ من الإبداع والابتكار في شتى المجالات، حيث أدى الانفتاح على الآخر الديني والاستثمار فيما ينمي المشترك الانساني، إلى إبراز قيم جمالية متعلقة بطرق العيش وخلق حالة من التلاقح الإيجابي بين مختلف المكونات سواء تعلق الأمر بالجانب الثقافي أو بالعادات والأعراف، فالتعايش الذي آمنت به كل الشرائح الاجتماعية بالأندلس، أسس حضارة إسلامية مبدعة تؤمن بتلاقح الثقافات والقيم الإنسانية، وتعطي اهتماما بالغا بالقيم الجمالية ونهضة الإنسان ورقيه، وقد أعجب المجتمع الأوروبي وقتئذ بهذه الحضارة وقيمها، فتلقها بصدر رحب دون انزعاج، مما يظهر لنا أن الحضارة الإسلامية بالأندلسأندل كانت صاحبة مشروع رائد في تلك الحقبة جوهره الأساس، خلق قيم تسامحية من أجل بناء حضارة إنسانية إبداعية.

خاتمة

حاصل القول من دراستنا لسمات التعايش الإنساني والتأثير الثقافي في الحضارة العربية الأندلسية جملة من النتائج نعرضها كما يأتي:

أن التراث الأندلسي مليء بسلوكيات تقبل الأخر الديني والتعايش معه باعتباره إنسانا يستحق التكريم، وقد تقصينا ذلك من خلال علاقات الزواج التي ربطت مختلف أطياف المجتمع الأندلسي بغض النظر عن عقيدة ودين الزوجين، وهذا السلوك يعد مبدأ أساسيا في القرآن الكريم، قبل أن تنصّ عليه مواثيق حقوق الإنسان والقوانين الوضعية.

يؤكد التراث الأندلسي على أهمية العيش المشترك ونبذ العنف، فتكريم الإنسان واحتضانه ومد جسور التعايش معه، يساهم في تحقيق الرفاه وتنمية ما هو مشترك والبناء عليه في تقدم المجتمع ورقيه، وخلق حضارة تتقبل مختلف الثقافات وتستفيد من العادات والتقاليد الحسنة في سبيل الوصول إلى ازدهار الفرد وتحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض، بعيدا عن ثقافة الاحتكار والعلو والهيمنة والسيطرة على الآخر، وتقزيم تراثه الفكري والحضاري.

ازدهار وتطور الثقافة اليهودية والمسيحية، تم في ظل الحضارة الإسلامية، وهذا يظهر بالملموس أن التعايش مكون أساسي من مكونات الحضارة الإسلامية الأندلسية، ما يسقط مقولات عديدة من قبيل، ضرورة فرض وحدة دينية وثقافية لضمان وحدة الدولة واستقرارها. وربط تماسك الدولة الدينية بضرورة سن وصاية دينية معينة على المجتمع.

فرض ثقافة معينة على الناس بالأندلس كانت شبه غائبة، فأشكال السلوك وأساليب العيش لم تكن خاضعة لدين الأغلبية الحاكمة بالأندلس، فهدفها الأسمى كان هو، تحقيق السلم الأهلي عوض الاندفاع والحماسة وإثارة الحمية.

معاً، وهذا برهان تصويري قاطع على ما هنالك من تعاون بين الغناء العربي والغناء اللاتيني. ويجدر بنا أن نشير إلى أنه في القرون المتأخرة في عام 1293م كانت تجرى الأرزاق في بلاط "شانجة الرابع" على ثلاثة عشر من الشعراء المسلمين واثني عشر من المسيحيين فقط، وضمن هذا المنظور يذكر لنا شاعر القرن الرابع عشر العظيم "الأرثبرست دي حيتا" أنه ألف كثيرا من الأغاني لمغنين مسلمين، ويفصل القول في الآلات الموسيقية التي لم يكن يستعملها المغنون بالعربية، مما يثبت أن الأمر يتعلق بطبقة من المغنين الذين كان يستعملهم المسيحيون عادةً، وكذلك الشأن مع "بطره الرابع" صاحب أرغون، إذ نعلم أنه كان يتخذ في قصره شعراء مسلمين جوالين من شاطبة وكانت بها مدرسة موسيقية عربية ذائعة الصيت، فلا عجب إذن أن يؤثر الغناء العربي في الغناء المسيحي بل العجب ألا يكون قد أثر، وقد دفعت هذه المعطيات "أودنتجون"- شيخ الموسيقيين الأوربيين في القرن الثالث عشر – إلى تمجيد الموسيقيين العرب في حماسة بالغة.

يقول هوراسيو في رسالته الشعرية إلى أغسطس: (لما هزم اللاتينيون في إسبانيا وصقلية المسلمين في القرن الحادي عشر استسلموا بدورهم حيال التفوق للمغلوبين وأسرهم ما أعجبهم من علوم وفنون في الأراضي التي لم يكن قد بعد العهد بغزوها). لقد ابتكر الأندلسيون وأبدعوا في كل مجالات العلوم والفنون والآداب، واستطاع العقل الأندلسي المبدع الخلاق أن يستوعب كل ما وجده في شبه الجزيرة الإيبيرية في شتى نواحيها بمختلف فنون المعارف، وأن يضيف إليه بفكره المرن ما أحضر معه من الشعلة الحضارية الإسلامية في جميع حقول الثقافة الإنسانية فساروا في طريق المجد والرفعة.

في ذات الصدد، نجد أن يهوديا أرغونيا نابها تسمى عام 1106م في وشقه باسم "بيدرو ألفونسو" إذ تنصر في عيد القديس بطرس San pedro وشهد تعمده ألفونسو الأول ملك أرغون، ألف مجموعة قصصية أصلها إسلامي، صنفها وترجمها من العربية إلى اللاتينية ووضع لها عنوان Disciplina clericalis أي أدب العلماء، ويقول في مقدمة الكتاب إنه جمع حكماً للفلاسفة وأمثالاً عربية ليذكر الرجل العالم في سمر عذب ما قد نسيه ويتزود بالأدب والمعرفة. وكان كتابه مخصصاً للمثقفين المسيحيين، والإطار العام للكتاب يدور حول قصة لقمان الحكيم، والصداقة الوفية التي تظل حتى الموت. وذكر بيدرو ألفونسو أن الدافع وراء تأليفه للكتاب هو بيان كيفية دفع المرء الشرور على خير الوجوه، ونيل المثوبة في العالم الآخر.

للعلاقات الفنية بين العرب والإسلام من جهة، وبلاد أوروبا من جهة أخرى تاريخٌ حافل. نشأت هذه العلاقات مما كانت تتبادله أمم العالم، منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، في معاملاتها التجارية، من منتجات فنية منها التحف الخشبية والعاجية والمعدنية، ومنها الأواني الخزفية والزجاجية، ومنها المخطوطات المصورة، ومنها أنواع الأقمشة والسجاد. وازدادت رابطة العلاقات توثقا مما كان يشاهده من عمائر العرب والمسلمين أفواج الحجاج في طريقهم إلى بيت المقدس من جهة، وإلى شنت ياقب في شمالي غربي إسبانيا من جهة أخرى. ونشأت

لم يكن تطور الحضارة الإسلامية - الأندلسية مبنيا على الامتلاك والسيطرة، وفرض أفكار عنصرية وأسطورية واستلائية على الحضور الإنساني، ومن هنا يتضح أن الحضارة الإسلامية عموما حاضنة للهويات الدينية بناء على فلسفتين هامتين هما: فلسفة الإستخلاف: والتي تؤسس لحركة الإنسان في الكون بغية بناء الحضارة والعمران .

فلسفة التكريم: فالفاعل الأول هو الانسان، ولذلك ينبغي تكريمه حضاريا على مختلف الصعد.

لائحة المصادر والمراجع

أحمد المختار العبادي، صور من التسامح الديني والتعاون المشترك بين المسيحيين في إسبانيا في العصور الوسطى، مجلة المعهد المصري، ع 26، مدريد، 1993م - 1994م.

أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، دار المعارف، 1985م.

آنخيل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر. حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د ت).

إبراهيم موسى هنداوي، الأثر العربي في الفكر اليهودي، (د م)، مكتبة الانجلو المصرية، (د ت).

ابن الأبار، الحلة السيراء، تح. حسين مؤنس، (د م)، الشركة العربية للطباعة والنشر، (د ت).

ابن حزم، طوق الحمامة من الألفة والألاف، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ط1، 2016م.

ابن حزم، المحلى بالآثار، تح. عبد الغفار سليمان البنداري، بيروت، دار الكتب العلمية، 1408هـ1988/م.

ابن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تح. ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ط2، (د ت).

ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تح. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط4، (د ت).

ابن سلمون، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، تح. محمد عبد الرحمن الشاغول،(د م)، دار الآفاق العربية، ط1، 2011م.

ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تح. لويس شيخو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1912م.

ابن عذاري، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تح. بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، تونس، دار الغرب الإسلامي، ط1 ،1434هـ2013/م.

ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تح. إبراهيم الإبياري، (د م)، دار الكتب اللبناني ودار الكتب المصري، ط2، 1410هـ1989/م.

جوزيف بوزورث، وشاخت وكليفورد ، تراث الإسلام، تر. حسين مؤنس، محمد زهير السمهوري، إحسان صديقي العمد، تح. شاكر مصطفى، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافية والفنون والآداب، ع 11، 1978م.

خالد يونس الخالدي، اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، (د م)، ط1 ،1429هـ2008/م.

رامون مندث بيدال، إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، ع 1، مدريد، إسبانيا، 1372هـ/1953م،

رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الاسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتب الاسلامية، دار الكتب المصري، دار الكتب اللبناني، (د ت).

سحر عبد العزيز سالم، بنو خطاب بن عبد الجبار التدميري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1989م.

الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1417هـ1997/م.

شوقي ضيف، الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الإسبانية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، ع 23، مدريد، إسبانيا، 1985م-1986م،

الطرطوشي، الحوادث والبدع، دار ابن الجوزي، ط1، 1411 هـ/ 1911م.

العذري، نصوص عن الاندلس من كتاب، ترصيع الاخبار وتنويع الاثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك الى جميع الممالك، تح. عبد العزيز الأهواني، مدريد، منشورات معهد الدراسات الاسلامية مدريد، (د ت).

عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، لبنان، دار المعارف، (د ت).

القرطبي، الجامع لأحكام القران، تح. مصطفى السقا، القاهرة، دار الفكر، ط2، (دت).

القروي الخشني، قضاة قرطبة، تح. إبراهيم الابياري، دار الكتب المصري ودار الكتب اللبنانية، ط2، 1410هـ/1989م،

ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا، تر. الطاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1414هـ1994/م.

المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، (د م)، دار صادر، 1968م.

محمد أحمد أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996م.

عمل جماعي، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، دراسة تحت إشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافية "يونسكو"، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م.

مجهول، ذكر بلاد الاندلس، تح. لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد ميغيل أسين، مدريد، 1983م.